

طرائف من العصر المملوكي

للأستاذ محمود رزق سليم

تمهيد:

قبضت في الطروف الاطلاع على كثير من تاريخ مصر المملوك وأدبه ، واجتماعاته . واستحدثت من ذلك كله مؤلفاً موسوعة تصدر تباعاً في أجزاء . وأحببت أن أعجل إلى قراء الرسالة القراء ؛ فأعرض على أظفارهم صوراً شتى لخواص هذا العصر ، آملاً أن يراها طرائف ، وأن يروا في هذه الطرافة شيئاً نافعا يجل أمامهم وجه هذا العصر وخصائصه ، ويرزق من حواشيه ما اكتنفها من ظلام . وستكون هذه الطرائف خليطاً متوعاً ما بين تاريخية وأدبية واجتماعية ونحوها . وإلى القارئ . نذرة تاريخية سريعة تعرف بالعصر .

١ - التعريف بالعصر

العصر المملوكي فترة من فترات التاريخ المصري الطويل ، وحقيقة من أحقابها الواسعة ، تحتجز منه زهاء ثلاثة قرون بين سنتي ٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ . وبدأت بدءاً هيئالينا لاضحة فيه ولا صخب إلا لما لمسا ، كما بدأت عصور قبله . ثم أخذ فيه الضجيج يشتد ، والمجيج يزداد ، وما زال حتى انتهى بأن هوت البلاد تحت أعباء حادث جلل وخطب عظيم .

قامت الدولة الأيوبية بمصر بزعامه مؤسسها صلاح الدين الأيوبي وما زالت تمالج الحروب الصليبية وغيرها ، حتى ملك البلاد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي أحد ملوك هذه الدولة . فوقت في عهده إحدى المارك الحاسمة في تلك الحروب وهي معركة « المنصورة » التي أمر فيها ملك فرنسا « لويس التاسع » . وكان الصالح نجم الدين قد استكثر من شراء المماليك من الأتراك ، وديارهم ، وابتنى لهم قلعة بجزيرة الروضة ، وأخذ منهم حاشية وحرماً وجندا ، ووجد فيهم وفاء وولاء ، كما وجد فيهم شجاعة وبلاء ، في حوادثه المختلفة ...

مات الصالح نجم الدين ، والمركة في إبانها وديارها . فكتمت

زوجته « شجرة الدر » خبر وفاته ، لتحتفظ على جيشه معزوبته ، ريثما يموت ابنه « توران شاه » ويتسلم مقاليد الأمور .

عاد توران شاه ، فلم يستطع أن يستعصى زوجة أبيه « شجرة الدر » ولا أن يستخلص ممالك أبيه . فأنهى النزاع بينهما بأن قتلوه قتلة شنيعة .

حينذاك نصب الأسراء من المماليك « شجرة الدر » ملكة على البلاد ...

« شجرة » الدر تعتبر - من ناحية - بقية من بقايا الأيوبيين ، فوجودها على العرش امتداد لوجودهم . ولكنها - من ناحية أخرى - كانت جارية من جوارى الملك الصالح ، وليست أيوية من نسل الأيوبيين ، فوجودها على العرش يعتبر بدءاً للعصر المملوكي ، أو هو على الأقل إرهاب من يبدئه .

قيل إن خليفة بغداد - إذ ذاك - المستعصم بالله العباسي أرسل إلى رجال مصر بغيرهم بها ، وبوبخهم لأنهم ولوا عليهم أسراء . فخشيت « شجرة الدر » منبة الأمر ، وأخذت سر كزها يتخرج ، وخشيت كذلك أن تتحرك أطماع الطامعين من بقايا الأيوبيين . فأرادت أن تتلافى الأمر ، وأن تحتصى هي وعرشها برجل منيع لها ، يكون له من الملك اسمه وشكله ، ويكون لها منه النفوذ والسلطان .

اختارت « شجرة الدر » لذلك مملوك زوجها وهو « أيبك الجاشنكير » وكان حينذاك أحد أسراء دواتها الكبار . فزوجته وتنازلت له عن العرش ، فارتقاء ملكا ، وبقيت هي بجواره لها الأمر والنهي والحول والطول . وتلقب بالملك الممزر ، وكان أول ملوك هذه الدولة .

تسم الملك المزعزعه في غير كثير من الجلبة والضوضاء - كما أشرنا - وبذلك انتقل الملك من دولة إلى دولة ، وبذلك أيضاً بدأت دولة الأرقاء .

ودرج الأسراء فيها على أن يقدوا مجالس للشورى عند خلو العرش ، ليختاروا من بينهم أميراً يجلس عليه . فإذا تم الأمر لأحدهم كان إليه وحده الحكم والسلطان .

أما هؤلاء الأسراء فهم من المماليك المتقين الذين وصلوا بذكائهم وولائهم إلى هذه المرتبة . ولم يحددهم حق اختيار سلطان

وكان لها إنتاجها القيم في ميدان العلوم والآداب الإسلامية والمربية ...

وكما امتازت سلطنة المالك بإحياء الخلافة العباسية وبالنشاط العلمي ، امتازت بالنظام الرباعي في القضاء ، إذ أصبح للبلاد أربعة قضاة ، من كل مذهب من المذاهب السنية قاضى قضاء .

وهكذا ترى أن للمصر الملوكة كثيراً من الخصائص والمميزات ولا بد لنا من القول إن هذه الدولة كلفت ثلاثة أعداء الداء خارج حدودها ، وهم التتار والفرنجية والعثمانيون عدا الخارجين عليها من أتباعها أو معالقيها . ونجحت في درء خطرهم إلى حد كبير ، وسجلت في سبيل الذود عن مصر وعن الإسلام صفحات خالدة . غير أن الفتن الداخلية والأطماع غير المشروعة التي نبتت في رءوس أمرائها كانت علة مزمنة من علها ، ظلت مضاعفاتها تنهك قوتها وتخضع شوكتها ، حتى أخذت تقربها من نهايتها . وقد كانت هذه النهاية على يد السلطان سليم ملك العثمانية الذي احتل البلاد عام ٩٢٣ هـ بعد حرب عنيفة طاحنة أبلى فيها الأشراف النوري وطومان باي البلاد الحسن . وهذا الاحتلال هو الحادث الجلل الذي أشرنا إليه .

هذه عجالة موجزة تعرف بالمصر . ونحاول في المجالات القادمة أن نظرف القراء بما يجلي مصر ، ويكشف عن كثير من مميزاته وخصائصه .
محمود رزق سليم

البلاد . لهذا كانت طريقة الحكم في الدولة نمطاً فريداً بين طرق الحكم المروفة .

وقد عاشت هذه الدولة زهاء قرون ثلاثة — كما أشرنا — ويقسمها بعض المؤرخين إلى دولتين . البحرية والبرجية ، أو التركية والجركية . وملوك الدولة البحرية من المالك الأتراك ، وملوك الدولة البرجية من المالك الجراكسة . ومؤسس الأولى الملك المزم « أليك الجاشنكير » ، ومؤسس الثانية الملك الظاهر « برقوق ابن أنص » .

وأتخذت كلتا الدولتين جنودها من المالك ، إذ عني الملوك والأمراء مدماً بجلبهم وشراهم من الأسواق الخارجية ، كما عنوانا بتفشيهم تنشئة عسكرية ، واتخذوا منهم بطانة وحرساً . ووكلوا إلى النابيين منهم — بدعتهم — مناصب الدولة . وكانت كلها مناصب عسكرية إذا استثنينا منها مناصب القضاء والكتابة وما إليها وتكون من هؤلاء الجنود والأمراء ومن السلطان ، الطبقة الحاكمة في البلاد ، التي لها دون سواها من نابتة البلاد ، حق الحكم وتصريف الأمور .

واشتهر من ملوك الدولة البحرية غير أليك . قطز ويبرس وقلاوون وابنه الناصر محمد . واشتهر من ملوك الدولة الجركية غير برقوق . ابنه فرج وقايتباي والنوري والأشرف طومان باي . ولكل من هؤلاء أعمال مجيدة نافعة ما بين حروب خارجية وإصلاحات داخلية . ويصير بعض المؤرخين ، هذا العصر امتداداً للمصر الأيوبي ؛ لأن الدولة في أغلب نظمها نهجت نهج النظم الأيوبية . ولكن — دون شك ورغم هذا — كان للمصر خصائصه ومميزاته التي تفصله عما عداه .

وحقاً احتفظ سلاطين مصر بسلطانهم مستقلة صرفة اللواء عزيزة الجانب تضم بين ممتلكاتها البلاد الشامية والحلبية والحجازية في أكثر أيامها . غير أنها امتازت ببيت الخلافة العباسية في القاهرة وتجديدها . بعد ما وثدت في بغداد على يد التتار عام ٦٥٦ هـ . فأصبحت القاهرة بذلك محوراً دينياً للمسلمين ، وفي ذلك كسب أدبي عظيم كان له أثره في تثبيت ملك سلاطين مصر في هذه الحقبة ، وإكسابهم الشرعية اللازمة ، لأنهم كانوا عليها دخلاء . كما كان له أثره في تلك الحركة العلمية الباركة التي نشطت في القاهرة والمدن المصرية والمدن التابعة لمصر ، طول العصر .

مصلحة الجمارك المصرية

تطرح بالمناقصة العامة طبع وتوريد حوالي ٤٥٠ مليون طابع من بطاقات رسم الإنتاج على الكبريت وورق اللب لازمة للسنة المالية ١٩٤٨/١٩٤٩ وقد تحدد ظهر يوم الثلاثاء الموافق ٦ يناير سنة ١٩٤٨ آخر موعد لـ المطامات ويمكن الحصول على شروط المناقصة من الإدارة العامة بالإسكندرية مقابل دفع